مجلة المحترف لعلوم الرياضة و العلوم الانسانية و الاجتماعية
المجلد (11) العدد (03) السنة (2024)
الصفحة 135-149

/

فلسفة التغير الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة: المجتمع الغربي أنموذجا

The Philosophy of Social Change in Contemporary Societies: From Solid Modernity to Liquid Modernity - The Western Society as a Model.

لينده بورايو[1*]،

[1]جامعة الجزائر3(الجزائر)، lindabourrayou@gmail.com

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2023-07-09

تاريخ القبول:30/06/2024

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

الملخص: تتمحور هذه الدراسة حول رؤية تحليلية لإشكالية التغير الاجتماعي لحداثة وما بـعدها وفق مساءلة نقدية فلسفية وسوسيولوجية،يتم من خلالها شرح الحداثة الغربية في مسيرتها وانتقالها من مرحلتها الأولى المتميزة بالصلابة والتي دشنها عصر التنوير، إلى زمنها الثاني المتسم بالسيولة وسرعة التغير. م ع التركيزعلى توصيف الوضع الإنساني المعاصر في مرحلة السيولة، وفق إشكال يتموضع في صميم الراهن بامتياز وهوراهن التغير الاجتماعيفي ظل الوضع الإنساني الحديث في ظل فلسفةما بعد الحداثة. من خلال بحث في المنطلقات الفلسفية والمعرفية للمشروع الحداثي وتحليل التغيرات الاجتماعية المصاحبة له مع الوقوف على التحولات التي يخضع لها إنسان اليوم.

الكلمات المفتاحية: التغير، التحول، الحداثة، الإنسان،السائلة.

ABSTRACT:

This studyrevolvesaround an analyticalexamination of the issue of social change in modernity and itsaftermath, employing a criticalphilosophical and sociologicalapproach. It aims to elucidate Western modernity in its progression, transitioningfromits initial phase characterized by rigidity, whichwasinauguratedduring the Enlightenmentera, to itssubsequent phase marked by fluidity and rapid transformation. The emphasisisplaced on describing the contemporaryhuman condition in the fluid phase, a crucial aspect of the current state of social change within the modern humanexperience, within the framework of postmodernphilosophy. This researchdelvesinto the philosophical and epistemologicalunderpinnings of the modern project and analyzes the social changes thataccompanyit, whilealsoexamining the shifts experienced by individuals in today's world.

Keywords: Change, Transformation, Modernity, Human, Liquid.

[*] المؤلف المرسل لا يكتب اسم المؤلف تبقى فقط المؤلف المرسل

1. مقدمة:

لم يحدث في تاريخ الفلسفة الطويل كلّه أن كان الإنسان موضعا للغرابة والسؤال. بل دائما السؤال الفلسفي كان مشغول بمحاولة إدراك الوجود وتفسير العالم،أو حيازته وتسخيره لصالح الانسان في مرحلة لاحقة .وعلى هامش تلك الرحلة الفلسفية الطويلة، بدأت تظهر فلسفات تساءل الإنسان نفسه.وتهاجم الأسس الفلسفية والنظرية التي استندت عليها الحداثة بنوعيها الانسانية التي برّرت مركزية الانسان ودوره في الحياة .وبمرور الوقت وبالدخولفي القرن العشرين وما صاحبه من تغيرات أخذت تتحرك تلك الفلسفات من الهامش إلى متن الحركة الفلسفية المعاصرة.لتظهر أسئلة في الفكر الفلسفي والاجتماعي عنط بيعة المعرفة التي يمكن للإنسانأن يصل إليها و أخرىعن نفسه و عن العالم ،و عن طبيعة التغيرات الاجتماعية الحاصلة في فترة ما بعد الحداثة. إذ ليس هناك شك في أنّ الحضارة المعاصرة قد حققت قدراً لا بأس له من النجاح والتقدم، فلقد استطاعت أن تلبي وتحقق كل ما يحلم به الإنسان من مطالب وحاجات مادية في ظل التقدم العلمي والتكنولوجي، الذي استطاع أن يسخّر كل شيء للإنسان وأن يصبح بواسطته سيدا للعالم. ومع ذلك فقد برزت صيحات تنذر بأنَ الحضارة المعاصرة تمر بمأزق أو أزمة، فإذا كانت لكل حضارة أزمتها فإن أزمة الحضارة الغربية ومجتمعاتها اليوم هي أزمة الإنسان واغترابه، ف يإطارمنظومة فكرية محكمة أساسها فلسفة التغيير القائم على القوة واللّذة كمعيارية قيمية للفرد والإنسان، إذ تمَ إعادة صياغ ته إلى أن أصبح ترساً في آلة، أصبح شيئاً من الأشياء، ليفقد بذلك ذاته ويشعر بالاغتراب، وأصبح في ظل هذا التقدم التقني والعلمي ليس له وجود ذو معنى إلاّ بما يتناسب مع المقاربة الاقتصادية ذات الطابع المادي.

وتأسيساً على ما سبق تتمحور إشكالية موضوعنا حول محاولة رصد راهن الإنسان في ظل فلسفة التغير الاجتماعي المعاصر الذييتميز بحداثة سائلة، و البحث في الكيفية التي أصبح فيها حاضر الإنسانية في ظل هذا التغيروالذي طغت عليه الحداثة المادية والعقلانية الأداتية الوثيقة الصلة بمقاربة سلم الحاجات الانسانية ذات الطابع المادي اللامتناهي .إن هذا الطرح الإشكالي يسلط الضوء على التحول الذي طال الإنسان والمجتمع ككل في خضم عصر ينوء بالتحولات المتسارعة وبالتحديات التي لا تنتهي، وعرضه للمآلات الكبرى التي أدت إليها الحداثة السائلة في زمننا هذا، وتجلياتها في أحوال الإنسان اليومية، ، وما يمر به من أزمات بفعل النزعة الاستهلاكية التي ارتفعت وتيرتها وتعمقت آثارها بفعل العولمة،ففي العولمة يتضح الكثير مما نعنيه بالسيولة، سيولة البشر بتدفقهم من مكان لآخر، وسيولة المال وسيولة الهويات بتغيرها المستمر.

وعلى ضوء ما سبقنطرح التساؤلات التالية: ففي ظل هذا التحول الدؤوب كيف يمكن قراءة الوضع الإنساني المعاصر في مرحلة السيولة ؟كيف حوّلت الحداثة السائلة الإنسان من الإنسان ذو الأبعاد المتشابكة ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية إلى الإنسان ذو البعد الواحد؟ وهل أفلح المشروع الحداثي العالمي في مساعدة الإنسان على تحقيق إنسانتيه من خلال تحريره من أية أبعاد وجدانية أم أنّها حولته إلى إنسان اقتصادي يعرّف في ظل حواسه الخمس ومعدلات إنتاجه واستهلاكه؟ ما طبيعة التغير الاجتماعي الذي يعرفه المجتمع الغربي المعاصر؟

ومن خلال ما سبق، يمكننا تحديد أهداف الدراسة فيما يلي:

1 -محاولة الاقتراب من الحداثة لا كمشروع فكري وفلسفي فحسب بل ملامستها عبر رصد واقعها المعاش الذي أضحى مناقضاً لروحها القائمة على الهيومانية والإنسانية مع إعادة التفكير وبنبرة من الأمل في الوجود الإنساني ودلالاته في الأزمنة الحديثة.

2 -تسليط الضوء على التحول الذي طال ماهية الوجود الإنسان خصوصا في المجتمع الغربي منذ أعتاب القرن العشرين وصولا إلى الألفية الثالثة، والذي يتقاطع فيه الهاجس الوجودي بأزمة الإنسانية والتي جرّت الوعي قسراً إلى إعادة التفكير في معنى الإنسان نفسه.

وتستمد الدراسة أهميتها من واقع المجتمع الغربي ، حيث طغى هاجس الربح على حياة الأفراد وتعرضت إنسانية الإنسان إلى أزمات أخلاقية وتحول الأفراد بفعل ذلك إلى أرقام وأشياء، كما تستمد الدراسة أهميتها في الاقتراب من الحداثة في صيغتها الحياتية وتجليات منظومتها في الواقع المعاش. فالحداثة ليست نقطة ثابتة لصورة ساكنة، إذ فيها من الحركة والتحولات التي تبين لنا كيف تشكلت البدايات واختلفت المآلات. كما تبرز لنا أهمية دراستنا هذه في أنّها تركز على وحدة التحليل الأساسية وهي الإنسان وتقلبات أحواله في ظل مفردات التغير الاجتماعي والحداثة.

ولما كان الواقع الإنساني والاجتماعي متعدد ومتشابك تتداخل فيه العوامل المؤثرة فيه والمكونة له، وتتعقد بصورة ظاهرة البيان، لذلك فإنَ المنهجية الملائمة للبحث في مثل هذه الموضوعات هي المنهجية المرّكبة القادرة على الإحاطة بالموضوع في كليته، طالما أنَ التبسيط والتجزيئي لا يفي بالغرض من البحث في مثل هذه الموضوعات، وهي قائمة على المنهج الوصفي والتحليليلفهم الظواهر وإدراك أسبابها وتداخلاتها والنتائج المترتبة عليها.

والهدف من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على حاضر الإنسان المعاصر في ظل التغير الاجتماعي ومحاولة الاقتراب من الحداثة بصيغتها الحداثية والتي يجد فيها الباحث نفسه مستوعباً الظاهرة التي يقرأ عنها ويدرك أنه في داخلها، مما قد يساعده على بناء فهم نقدي لمسارات الحياة المجتمعية الراهنة.

2.مفاهيم الدراسة:

1.2-التغير الاجتماعي:The social change

هو التحول الذي يقع في التنظيم الاجتماعي أي الأوضاع الجديدة التي تطرأ على البناء الاجتماعي بما يشمل عليه من تنظيم وعلاقات وتفاعلات نتيجة لبروز قواعد وأطر جديدة لضبط السلوك أو كنتاج لتغير فرعي معين أو جانب من جوانب الوجود الاجتماعي أو البيئة الطبيعية أو الاجتماعية، كما يعبر التغير الاجتماعي عن ظاهرة اجتماعية تمس الجماعة فيتم التحول في ظروفها أو قيمها أو أسلوب حياتها أو ثقافتها، فهو ليس مجرد إضافة آلية أو إقصاء لبعض الأنماط والسمات السابقة بطريقة كمية، وإنَما إلى جانب ذلك هو عملية إضافة وتعديل لسمات ثقافية مختلفة، إذ يتم ضمن التغير الاجتماعي غالباً إعادة تنظيم السلوك وبعث التغيرات في القيم الاجتماعية سواء أكانت ظاهرة أو ضمنية. ويعرفه ولبرت مور:بأنَه" التبدل الجوهري في الأبنية الاجتماعية أي في أنماط الفعل الاجتماعي بما في ذلك النتائج المرتبطة بهذا التبدل كما تنعكس في التغيرات التي تطرأ على القيم والمعايير والمنتجات الثقافية والرموز(الاخولي، 1993).

ومنه نستنتج أنَ التغير الاجتماعي هو تعبير عن المظهر الديناميكي للمجتمع الإنساني والحركة اللاطردية المستمرة والمتتابعة التي تتم من خلال التفاعل الاجتماعي عبر الزمن، والتي تعبّر عن أنماط من العمليات والانتقال والتنمية والتقدم التي تتم عن طريق الاختلافات والتعديلات والدورات والتذبذبات التي تطرأ في مضمون وبناء الجماعات والنظم، وكذلك في العلاقات الاجتماعية(بدوي، 2018، صفحة 13).

فالمجتمع في حالة تكوّن مستمر وهو ليس بالكائن الجامد بل يتطور باستمرار ليتحول في تركيبته ومكوناته، وهو عملية مرتبطة بالبيئة الاجتماعية بكل مظاهرها وأنساقها المشكلة لها (شبيلة، 2012، صفحة 71)، إذ توصف المجتمعات الإنسانية بأنَها في تغير دائم، فعالم اليوم ليس هو عالم الأمس ،إذ تتعدد فيه المؤثرات وتتنوع أشكال المنافسة فيه وتنهار الفواصل الزمانية والمكانية بين الدول والمجتمعات ،ويبقى التغير الاجتماعي ظاهرة عامة ومستمرة ومتنوعة، له آثار قد تكون إيجابية أو سلبية، وقد تمتد لتشمل كافة الأنشطة الاجتماعية، وبالتالي فإنَ المجتمع قد يصاب بحالة من عدم الاتزان، وبالتالي قد يحتاج إلى إعادة التوازن أو التكيف معه، وهذا الفعل يسمى بالتغيير، وبالتالي فالتغيير هو في الأصل فعل مقصود.

2.2-الحداثة Modernity:

تعبّر الحداثة عن مرحلة تاريخية بلغتها المجتمعات الإنسانية في مسارها التاريخي، فهي ظهور لملامح المجتمع الحديث المتميز بدرجة معينة من التقنية والعقلانية والتفتح. والحداثة كونياً هي ظهور المجتمع البرجوازي الغربي الحديث في إطار ما يسمى بالنهضة الغربية أو الأوروبية، هذه النهضة التي جعلت المجتمعات المتطورة صناعياً تحقق مستوًى عالياً من التطور، مكّنها ودفعها إلى غزو وترويض المجتمعات الأخرى (سبيلا، مدارات الحداثة، 2009، صفحة 123)وهناك ثمة شبه إجماع أنَ الحداثة مرتبطة تماماً بفكر الاستنارة الذي ينطلق من فكرة أنَ الإنسان هو مركز الكون وسيده، وأنَه لا يحتاج إلَا إلى عقله سواء في دراسة الواقع أو في إدارة المجتمع، أو للتمييز بين الصالح والطالح، وفي هذا الإطار يصبح العقل أداته وهو أساس لفكره وإنجازه، والتكنولوجية هي الآلية الأساسية لتسخير الطبيعة وإعادة صياغتها ليحقق الإنسان سعادته ومنفعته، والعقل هو الآلية الوحيدة للوصول إلى المعرفة (المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، 2009، صفحة 34).

ولقد مثّلت الحداثة لحظة تاريخية حاسمة في مسيرة العقل الغربي، ولقد شهدها المجتمع الغربي في سائر المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فمشروع الحداثة هو اتجاه نحو تحطيم المقدّس بمعنى ذلك الماضي العتيق والموروث الثقافي الغابر في القدم، (مدارس الفكر الإغريقي وتوجهات الفكر المدرسي الوسيطي)، والذي يقدم إنجازاته بمظهر القداسة، لذلك ظهر الخطاب التأسيسي للحداثة من خلال إعلان ضرورة عقلنة النظر والعمل (الفكر والممارسة) من منطلق رفض كل أشكال اللامعقول (بلقزيز، من النهضة إلى الحداثة، 2009، صفحة 12).وبالرغم من انتشار لمصطلح الحداثةModernityيقولآلان توران Alain Touraine: "إن فكرة الحداثة هي فكرة صعبة الفهم في ذاتها"(توران، 1997، صفحة 27)، إلا أنهاتبقى من نوع تلك المفاهيم التي تتمرد على المفهمة(التركي، 1992، صفحة 128). وانطلاقا مما سبق، فالحداثة هي أقرب في المعنى من كونها ظاهرة متعددة العوامل أبرز ما فيها جانبها العقلاني الذي يبث منتجاتها وينشرها في مجالات الحياة الإنسانية المختلفة.

3.2-الحداثة السائلة:Liquid modernity

يمكننا اعتبار هذا المفهوم هو من اشتقاقات زمن العولمة وعالم ما بعد الحداثة. فالحداثة السائلة عند عالم الاجتماع البولندي زيغمونباومان، ليست بالمرحلة الجديدة، ولكنها الشكل الجديد الذي أخذته الحداثة بعد فشل المشروع الحداثي الصلب في أن يحقق النظام الذي رآه على الوجه المطلوب، بمعنى أنَ الحداثة بشكل أو بآخر كانت تستهدف تثبيت الأوضاع، أي تفكيك أوضاع قديمة من أجل إعادة تشكيل أوضاع أكثر صلابة وثباتاً في المستقبل عن طريق العمل والإنتاج والتراكم، فإذا بها لم تنجح في تحقيق هذا الهدف لتدخل في مرحلة من السيولة المزمنة،والتي لم تقد إلى نهاية التاريخ ولم تحقق النظام الصلب" الفردوس الأرضي" الذي وعدت به،فانعكست العلاقة وصار المجتمع يتعايش مع المرونة ويتخلص من الثبات. لقد قطعت الحداثة عهدها بأن تمنع التهديدات الكبرى عن طريق التقنية والعلم،ولكنهافشلت بحسب المفكر وعالم الاجتماع باومان في تحريره من مخاوفها التي يغديها فقدان الأمان(باومان، 2006)، وبعبارة أخرى، إذا اعتبرنا مرحلة الحداثة الصلبة هي مرحلة الإنتاج والتطور الذي تتحكم فيه الدولة وتكبح جماح الأفراد لصالح الجماعة فإن مرحلة السيولة هي مرحلة تخلي الدولة عن هذا الدوروفتح السوق أمام رأسمال الحر والاستهلاك والتحديث المستمر الذي لا غاية له ولا هدف له إلا المزيد من الاستهلاك والإشباعالفوريوالمؤقت. يفسره قول باومان في كتابه الحداثة السائلة والذي جاء كالتالي:

« ما قررت أن أسميه بوضوح" الحداثة السائلة" إنما هو الإيمان المتنامي بأن التغير هو الثبات الوحيد، وان اللايقين هو اليقين الوحيد إذ كانت الحداثة في المئة عام الماضية، تعني محاولة الوصول إلى حالة نهائية من الكمال أما الآن فإن الحداثة تعني عملية تحسين وتقدم لا حد لها، من دون وجود حالة نهائية في الأفق ومن دون رغبة في وجود مثل هذه الحالة» (باومان، الحداثة السائلة، 2016، صفحة 27).

والحداثة السائلة مفهوم جديد نحته باومان لكي يكون أداة شاملة لفهم النسخة الراهنة من الحداثة في الفكر والحياة اليومية والأدب وفي العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وهذا المفهوم من اشتقاقات زمن العولمة وعالم ما بعد الحداثة، وعليه فالحداثة السائلة هي الحالة المعاصرة التي يتجلى فيها ذوبان الهياكل والمؤسسات الاجتماعية الصلبة في ظل تنامي السيولة في كل شيء من حولنا، فالسيولة هي نموذج لنمط حياتنا المعاصرة(مطر، 2017)

3.التغير الاجتماعي على ضوء فلسفة الحداثة وما بعدها

لقد آذنت الحداثة بميلاد نظام معرفي جديد في أوربا، كحركة فكرية حديثة وشاملة لرؤية جديدة للعالم، أنزلت العقل منزلة السلطة المرجعية المعرفية الوحيدة في إدراك العالم الطبيعي والاجتماعي، وكرّست الإنسان هدفاً نهائياً للتحرر والتقدم، فكانت بذلك بمثابة ثورة تتجه صوب التجديد وإلغاء القديم، عنوانها العقل القاطع للصلة بينه وبين الماضي البالي، كما يصوره أصحابها، آخذا طريقة نحو التحديث في شتى مجالات الحياة (بوزبرة، 2011، صفحة 30).هذا التغيير الكيفي هو ما سيعكسه فلاسفة عصر الأنوار ومفكروه، وسيتم التعبير عنه في أعلى مستويات التجريد إمكاناً، أي في مستوى الخطاب الإيديولوجي. فكتابات جون لوك (1704/1632) في بريطانيا،

وسبينوزا(1677/1632) في هولندا، وروسو (1778/1712)، فولتير (1778/1694)، وديرو(1713-1784)، وكوندرسيه (1794/1743) في فرنسا، كل آرائهم الاجتماعية النقدية، ونظرياتهم في السياسة والتشريع تعبير إيديولوجي عن هذه الإرادة الصلبة في رفض "القديم" في كل صوره وأشكاله: النظام القديم، والعالم القديم، والعلم القديم، بل حتى الإنسان القديم، وفي الوقت نفسه الدعوة إلى الإقبال على الجديد والحديث. لذلك لم يكن من الغريب أن يحتدم الصراع وأن تشتد ضراوته في ذلك العصر، والذي يمكن أن يختزل في صراع بين الخرافة والأنوار، وفي هذا الصدد يقول محمد سبيلا: "...إنَ دينامية الحداثة نشأت واستمرت كحركة دينامية، عصفت بالتدريج بكل البنيات والذهنيات العتيقة، وساهمت في إحداث نوع من القطيعة الجذرية مع كل ماهوتقليدي،محدثة سلسلة من الصدمات، يوجزها مؤرخو الفكر في الصدمة الكوسمولوجية، والصدمة البيولوجية، والصدمة السيكولوجية، وأخيراً الصدمة المعلوماتية"(سيبلا، 2000، صفحة 63).

لتمثل بذلك الحداثة لحظة تاريخية حاسمة في مسيرة العقل الغربي، مشروعها الاتجاه نحو تحطيم المقدّس من خلال الإعلان على ضرورة عقلنة النظر والعمل (الفكر والممارسة) من منطلق رفض كل أشكال اللامعقول (بلقزيز، 2009، صفحة 12). فلقد كان تاريخ الغرب عموماً شاهداً على تلك التحوّلات التي عرفتها أوربا في العصر الحديث، والتي شكّلت فصلاً حاسماً من فصول المعركة الطويلة التي خاضها الإنسان الأوربي ضد القرون الوسطى ومواريثها، انتهت بانتصار العقل على اللاّهوت، وعلى سلطة طبقة رجال الدين، هذا الانتصار تحقّق وتعزّز بانتصار علاقات الإنتاج الرأسمالية الوليدة والصاعدة على نمط الإنتاج الإقطاعي في حلبة الاقتصاد، وانتصار الثورة البورجوازية على الأنظمة الملكية المطلقة والمستبدة في حلبة السياسة، هذه العوامل والظروف المتداخلة آذنت بولادة نظام معرفي جديد يمثل رؤية فلسفية وثقافية جديدة للعالم والتي يمكن أن نقول أنَها تشكل الدعامة الأساسية اليوم لكل فلسفة تنموية، والتي أعادت بناء وصوغ الإدراك الإنساني للكون والطبيعة والاجتماع البشري على نحو نوعي مختلف. إنَها فلسفة الحداثة التي تولدت من رحم العلاقات الصراعية التي حكمت الفكر الأوربي بغيره من المنظومات الثقافية والفكرية السائدة آنذاك. فعلاقة الحداثة بما قبلها –أي بماضيها الثقافي والفكري- هي علاقة قطع، الذي يفيد انتقال الفكر من مستوى إبستيمي إلى مستوى إبستيمي آخر جديد، فالفكر الغربي الحديث أصبح لا يؤمن إلَا بما يتأسّس على الذات المفكرة الحرّة الناقدة، التي فتحت لنفسها مجالات للتفكير والبحث واتخاذ مواقف كانت ممنوعة من قبل(بوزبرة، 2011، الصفحات 11-12)، لقد كان الغرب بحاجة إلى ملء الفراغ الفكري الناجم عن عدم قناعة المجتمع الغربي بتعاليم الكنيسة، ومن ثم رفضه لها ولما تمثله، لتهيئة الظروف من أجل الانتقال من نموذج معرفي ثلاثي الأبعاد قوامه : الإله والإنسان والطبيعة، إلى نموذج معرفي ثنائي الأبعاد قوامه : الإنسان والطبيعة : ومَا انعكس بالضرورة عن ثنائية النظرة تلك، تفسير المجتمع والمؤسسات الاجتماعية على أنّها مجرد تغييرات أو نتاج للعقل البشري، بمعنى أنَه ليس لها كيان ذاتي. وبناءاً عليه، يمكن اختصار جميع القوانين الاجتماعية إلى قوانين نفسية فردية، ولتحقيق ذلك نشط الفلاسفة المتطرفون، ووضعوا الأرضية الفكرية التي تشكّل فيها العقلانية، والفردية، والنفعية حجز الزاوية، والمحرك الوحيد للسلوك الفردي، ومن ثم المجتمعي(العوران، 2014، الصفحات 38-39).

وهذا هو قوام وعمود الفلسفة المادية والمذهب الفلسفي الذي لا يقبل سوى المادة باعتبارها الشرط الوحيد للحياة (الطبيعية والبشرية)، ولذا، فالفلسفة المادية ترّد كل شيء في العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مبدأ مادي

واحد، وإذا دخل عنصر آخر مادي على هذا المبدأ الواحد، فإنَ هذه الفلسفة تصبح غير ماديةِ(المسيري، العلمانية و الحداثة و العولمة، 2013، صفحة 21).

لذلك أخذ الفكر الاجتماعي الإنساني الغربي يتحرر تدريجياً من تأثير المعرفة الدينية المسيحية (المعرفة النقلية) منذ عصر النهضة، وأصبح اعتماده كلياً على المعرفة العقلية التي تأثرت بروحها كل ملامح الحياة في المجتمعات الغربية المعاصرة، فهو يعتمد أساساً على النموذج المعرفي الذي يعطي للعقل أولوية في أية معرفة، فالعقل هو طاقة المعرفة، مَلكتها، ومُرتكزها، وتاريخ تطور المعرفة مشروط ومرتبط بتاريخ تطور العقل الذي هو بدوره مشروط بتاريخ التطور التقني والاقتصادي والإيديولوجي، فالعقل ينتج المعرفة كما أنَ المعرفة تعيد إنتاج العقل. وهذا العقل هو الذي أعطى التفوق النوعي للإنسان بوصفه كائناً مفكراً homoSapiens، ولقد تبنى هذا التيار النظرية الكانطية التي تمنع استعمال العقل في المواضيع الميتافيزيقية، فالعقل يعمل في نطاق المعرفة الممكنة، أي فيما هو معطى في الطبيعة والإنسان، وكل بحث خارجها يُوقع العقل في أوهام، فالعقل كما يرى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724 / 1804)، يعرف الظواهر ولا يعرف الأشياء في ذاتها، لذلك طالب بأن تختفي الميتافيزيقيا، لأنَها خطاب عن الشيء في ذاته(Kant, 1968, p. 29).

أمَا بخصوص النظر للإنسان فقد تميّز فكر الحداثة بإعطائه قيمة مركزية، نظرية وعملية حيث تم إرجاع كل معرفة إلى الذات المفّكِرة، وأصبح مفهوم العقل النقدي بمثابة النواة التي ستلتف حولها الآراء والتصورات الفلسفية، العلمية والسياسية. ضمن مشروع فكري يكون فيه العقل مرادفاً للتحرير والتقدم(الخطابي، 2009، صفحة 20).

ومثلّت النزعة الإنسانية الفلسفية بشكل رئيس ولادة عصر الحداثة، وكانت خير تعبير عن الاحتفاء به وعن الصورة الجميلة للإنسان بما يستتبعها من مستلزمات أخلاقية، كالدعوة إلى عدم اضطهاد الإنسان وعدم استغلاله، والرفع من كرامته. ويمكن اعتبار التعريف الذي قدمه **ألان تورين** ضمن مؤلفّه نقد الحداثة من أكثر التعاريف إحاطة بالوضع الحداثي، كتجلٍّ للفاعلية الإنسانية على مختلف مستوياتها، إذ يقول:

> "فالحداثة في شكلها الأكثر طموحًا، هي التأكيد على أنَ الإنسان هو ما يفعله، وأنَه من الضروري وجود توافق وثيق بين منتوجات العلم والتكنولوجيا والإدارة وتنظيم المجتمع من خلال القوانين بين الحياة الشخصية التي تحفزها المصلحة، وأيضاً إرادة التحرر من كل الإكراهات، وإذا ما تساءلنا: على أي شيء يرتكز هذا التوافق بين الثقافة العلمية والمجتمع المنظم والأفراد الأحرار؟ فسيكون الجواب: على انتصار العقل"(Tourine, 1992, p. 10)

فقدنهض الإنسان الأوربي واستفاق على واقع جديد، بعدما دام سباته قرونا، وبدأ يبصر الحقيقة من زوايا مختلفة، وأخذ بتحطيم أغلال التسلط والسيطرة، ورفع شعار الحرية والمعرفة في شتى مناحي الحياة كإعلان عن إنسانيته. والحداثة بهذا، هي ثورة على الفكر الذي جعل الإنسان جزءاً منفصلاً عن الطبيعة، ليكون هو الفاعل والمحرّك والنشط للفعل الثقافي والحضاري.

1.3اختزال الحقيقة الإنسانية في جوانبها المادية

من الانجازات الأساسية للعلم الغربي الحديث التخلص من الغاية فهو لا يثير أبداً سؤالاً عن السببية، بل يحصر تساؤلاته حول الماهية والكيفية، ويستطيع العلم بتحريره من فكرة الغاية أن يدرس الوجود دون أن تشوش عليه أيَ اعتبارات أخلاقية أو إنسانية، فمنذ انطلاقاتها الأولى كانت مناهج العلوم تهدف إلى مقاومة كل تفكير يخرج عن

دائرة الحس سواء كان تفكيراً دينياً أو ميتافيزيقياً أو عقلياً، فهي لا ترى المنطق السليم سوى في المعرفة الواقعية المنتزعة من الحس، ومصطلح الوضعية الذي أطلقه أوغست كونت نفسه يدل على أنّه كان يرغب في إشباع الحاجات الواقعية للعقل البشري وأن يقف عند هذه الحاجات فقط. وتأكيداً على هذا المنحى الحسي سعت العلوم الإنسانية إلى استعارة مناهج العلوم الطبيعية والفيزيائية منذ تأسيسها. فابتداءا قرّر كونت: "أنّنا ما دمنا نفكّر بشكل وضعي (حسي تجريبي) في مادة علم الفلك أو الفيزياء لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين، فالمنهج الوضعي الذي نجح في علوم الطبيعة غير العضوية يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكيروهذا ما جعل الحقيقة الإنسانية تختزل وتبّسط في جوانبها المادية، وممّا لا شك فيه أنَ الكثير ممّا يسمى بأعراض أمراض العصر اليوم يرجع إلى هذا الانقطاع الذي يشكو منه إنسان العصر الحالي مع أعماق نفسه ومع أعماق الكون المتمادي (الذوادي و المسيري، اشكالية التحيز، 1997، صفحة 34)، وفي هذا الصدد يُعتبر الفيلسوف الفرنسي إدغار موران Edgar Morinصاحب نظرية التعقيد والتركيب ممن أرجع مرض الحضارة المعاصرة إلى نتاج العزل والتبسيط والاختزال، إذ رد هذه الأخطاء كلّها إلى ما أسماه بالذكاء الأعمى aveugleL'intelligenceوهي حالة مرضية للمعرفة الإنسانية pathologie du savoir أفضت إلى لا إنسانية الإنسان المعاصر وإلى بربرية أنتجها العقل الأداتي بحسب وصفه، حيث ارتبط التقدم التقني والعلمي باختلالات في منظومة القيم وشروط الحياة، حيث سيطر التبسيط والاختزال على الفكر عامة، إذ يرى في هذا الصدد:"أنَ الصيغ المبسطة للمعرفة تشوه أكثر ممّا تعبّر عن الوقائع أو الظواهر التي تعرض لها، وإذًا أصبح من البديهي أنّها تنتج العمى أكثر ممّا تسهم في التوضيح" (إدغار، 2004، صفحة 9) وهذا كله أدى بروز أزمة في دراسة علم الإنسان.

4.التنمية الإنسانية من وعد الرفاه إلى التشيؤ

لقد شهد ت الألفية الثالثة ذيوع فكرة التنمية وارتباطها بتصور تقدم ورفاهية الشعوب، إلا أنّه مع نهاية هذا القرن العشرين بدأت الدراسات النقدية تنتقد ما آل إليه واقع الإنسان من صورة معاكسة تماماً، ففي إطار مقاربة تفكيكية، تفصل بين المعطى المادي وبين المعطى الإنساني من خلال التساؤل فيما إذا كانت المشاريع التنموية قد حققت كمشروع حداثي عقلاني تلك المعرفة الكلية الإنسانية الشاملة من خلال فكرة أنَ العقل يضم داخله ما يكفي لتفسيره دون الحاجة إلى أي متجاوز للطبيعة وللمادة، فإنَ الواقع الذي قدّس الإنسان سرعان ما تهاوى حين ارتد العقل وتحول من عقل نقدي إلى عقل أداتي، يعيش داخل حيز التجربة المادية، محكوماً بحدودها في التزام أحادي البعد بالسيطرة على الطبيعة والإنسان الأمر الذي أدى إلى التنميط والتشيؤ والاغتراب.

وهكذا فالحداثة وإن شكّلت كمشروع فكري نقلة حضارية كبرى، فهي لم تشكّل ذلك الرفاه الموعود ، فالمشروع وهو يؤكد من خلال طروحات التنوير على العقل والمنهجية النقدية والحريات الفردية، قد مكّن الفكر الغربي من وضع حد للميتافيزيقا الدينية على أساس تحرر الإنسان من لاهوت العصر الوسيط، إلّا أنّه نقل عبوديته من مجال الميتافيزيقا إلى مجال عالم الأشياء، التي جعلت الإنسان المعاصر فاقداً لذاته، وهو يرزخ تحت وطأة عجلة الإنتاج والاستهلاك، وبذلك لم يتنه الإنسان لما بشرّت به الحداثة، فلا السعادة تحققت ولا الأمن ساد العالم، ولقد أحسن عبد الوهاب المسيري في وصفها حين قال:

"...يمكن الحديث عن الحداثة الغربية باعتبارها آلة بدأ الإنسان في تشغيلها، ثمّ استمرت في الدوران بقوة الدفع الذاتية، ثمّ أخذت تتزايد سرعتها بقوة تفوق طاقة الإنسان، وهي في دورانها تدوس بقوة على الجميع، بما في ذلك الإنسان الغربي نفسه الذي بدأ في تحريكها وكان يحاول توظيفها لصالحه"(المسيري و التركي، الحداثة وما بعد الحداثة، 2003).

وبهذا المعنى يرى المسيري أنَ الحضارة الغربية الحديثة هي تعبير عن التراجع التراجيدي والمستمر للفلسفة الإنسانية، التي تهمش الإنسان ومنظوماته المعرفية والأخلاقية جميعاً، وتساويه بالظواهر الطبيعية وتردُّه إلى العناصر الأولية المادية(المسيري و أحمد عطية، دراسة في سيرته المعرفية ونقده لقيم الحداثة الغربية، 2018، صفحة 103)، وإذا كان المجتمع الحداثي ينطبع بحسب جون بوديار بظهور الفرد كمكانة ووعي مستقل، له أزماته الشخصية ومصالحه الخاصة، فإنَ هذا العقل الحداثي وقد تحوّل من مركزيته إلى ضياعه وسط الاستلابات المتكررة ولاسيما مع نِتاج التقنية زيادة على فقدانه لهويته بسبب التنظيمات والمؤسسات وشبكات الاتصال والتكنولوجية، لذلك فهو يعمل على إنتاج حقيقته رمزياً(بوديار، 2009، صفحة 235).

1.4: تشيؤ الظاهرة الإنسانية

من المعلوم أنَ المجتمع المعاصر خصوصاً الغربي منه قد بلغ ذروة تقدُّمه المادّي، غير أنَ هذا التقدم الذي ظلّ الغرب يتباهى به تعرّض لهزّات وانكسارات حادة لما أحدثه من تقلبات وتغيرات في أمور الحياة كلّها، والتي كشفت عن عمق الأزمة المتعدّدة الأوجه التي يعيشها المجتمع الغربي المعاصراليوم كالتأزم النفسي والفراغ الروحي. فلقد ألقت تجليات الأزمة بظلالها على الفرد والمجتمع الغربي على حد سواء إذ تفكك الإنسان واختزل في حواسه الخمس ليمثّل الإنسان الجسماني اللاهث وراء المنفعة واللّذة، وتفكّك المجتمع وانحلّت شبكة علاقاته الاجتماعية ليتحول من مجتمع صلب إلى مجتمع سائل ، فلم تمض حياة البشرية خلال تاريخها على وتيرة واحدة، بل لازمتها هزّات وأزمات هدّدت وجودها، كذلك الإنسان، يواجه في حياته أزمات يمكن أن تعصف به، لكنّها تعيد تشكيل مسارات حياته، فالشعور بالقلق ليس جديداً عليه، إلَا أنَ تغيرات الحياة السريعة وتأثيراتها حولّت حياة الأفراد واختياراتهم ووظائفهم ومواقعهم في المجتمع إلى واقع مرير وجبرية مزعجة، بعدما كان التقدم إلى المستقبل يتسّم بالتفاؤل والأمل الكبير بتحقيق السعادة، ممَا يجعل إرادة الإنسان وثقته في نفسه محل شكوك دائمة.

ولما كانت أولويات النظام العالمي الصناعي تتلخّص في :ما الذي يحقّق الأرباح؟ فقد جرى تطبيق هذا المبدأ على الإنسان نفسه، فامتدت الفكرة من الاقتصاد إلى الحياة البشرية بأكملها، وبالتالي أصبح الإنسان مشروعًا في إطار مقاربات التنمية خصوصاً في جانبها الاقتصادي، حياته هي رأس ماله، ويجب عليه استثمار رأس ماله هذا بقدر الإمكان، إذا تمّكن من استثمار حياته جيداً فهو ناجح وإذا لم يستطع فهو فاشل وخاسر، وهكذا يتشيّأ ويتحوّل هو نفسه إلى شيء، فأهم ما جاءت به الرأسمالية يقتصر فكرياً ونظرياً على توظيف مفهوم الإنسان الاقتصادي – بصفاته الفردية، والعقلانية، والنفعية المادية، وأساليب عمله وتوظيف الحرية الاقتصادية، ومفهوم السوق التنافسية ذاتية الضبط، انسجاماً مع النظرة الطبيعية للاقتصاد مع الاستخدام الرياضي المفرط عند التعامل مع الظاهرة الاجتماع، وإقصاء أي دور للقيم في تشكل تلك الظاهرة، ضمن النظرة العامة للحياة التي تتبناها الرأسمالية العلمانية، وعمليًا على خلق النزعة الاستهلاكية، ومن ثمّ مجتمع الاستهلاك (العوران، 2014، صفحة 31). ومن المعلوم أنَ نشأة المجتمع الاستهلاكي جاءت أساساً نتيجة لتطوير شخصية اجتماعية جديدة سميت بالمستهلك، وبعبارة أخرى. إنَ " صناعة

المستهلك " تقف وبقوة وراء ظهور الرأسمالية القائمة، لأنَ تلك الصناعة كانت العامل الحاسم الذي جعل من السوق، انطلاقاً من الثقافة الرأسمالية، أولاً مؤسسة "مستقلة " عملياً عن المجتمع، وثانياً الموجه الفعلي لسلوك المستهلك أي الفرد المحكوم بالنزعة الاستهلاكية عن قصد بتحقيق الذات والمكانة الاجتماعية بل وحتى التوازن النفسي (العوران، 2014، صفحة 33)، وهذا ما يخلق ظاهرة التشيؤ والتي تعني عند غيورغلوكا ش استقلال الأشياء الجامدة عن هذا العالم الإنساني الذي يتنج فيه هذه الأشياء نفسها، إذ يقول في هذا الصدد: "تنفصل هذه الأشياء عن الإنسان، رغم أنّ جوهرها مرتبط بعمل الإنسان، فتنعكس القضية الأصلية، فبدلاً من أن يتحكم الإنسان في الأشياء المحيطة به...، تتغير هذه الأشياء وتتحكم في حياة البشر،...ومن ثّم أصبحت الأشياء هي التي تصوغ حياة الإنسان وليس العكس" (غيورغ، 1979، صفحة 77)، وهذا يعني أنّ التشيؤ يحوّل الظاهرة الإنسانية –في ظل هيمنة النظام الاقتصادي الرأسمالي–إلى أشياء جامدة خاضعة لمنطق التبادل التجاري، بالصورة التي يتحوّل فيها البشر إلى "سلع"؛ وبناءاً عليه يشعر الإنسان بالاغتراب عن ذاته وتصبح قيمة الإنسان تقاس ممَا ينتجه من سلع، وفي هذا الإطار المادي لا يمكن الحديث إلَا عن الفعل ورد الفعل، فالمثير المادي تتبعه استجابة مادية بلا تردد، وفي هذا الصراع من أجل البقاء لا يفوز الأفضل بالمعنى الأخلاقي، وإنمّا الأقوى والأكثر تكيفا مع قوانين الطبيعة، أي الأفضل بالمعنى الطبيعي والمادي، والأخلاق المادية هي النفعية المادية، ومن ثمة يكون الانغماس في كثير من النشاطات المادية للإنسان والتي تحقق الربح المادي له وهو قمة الالتزام الخلقي المادي (زيجمونت، 2016، الصفحات 20-21)، ففي العالم المعاصر تحول العمل من كونه مجرد وسيلة للحصول على حياة جيدة إلى غاية في حد ذاته، فلقد فككّت الفلسفة المادية الإنسان إلى أجزائه التي تكونه، ليتلاشى في النهايةِ، ويختزل ويقلّص إلى مجرد إنتاج للسلع وتوزيعها وفقاً للحاجة، إنَ تقليص الإنسان إلى مجرد وظيفة إنتاجية استهلاكية حتى ولو كان له مكان في عمليات الإنتاج والاستهلاك ليس علامة على التنمية الإنسانية، وإنمّا هو سلب لإنسانيته وكل شيئ يحُط بشخصيته ويحليه إلى شيء هو أيضا أمر غير إنساني(عودة،سامح، 2018) .

إنّ المنظور الليبرالي الجديد طرح مفهوما جديداً للتغيير الاجتماعي يتماشى مع ثقافة السوق، ليعيش بذلك الإنسان تحت رحمة رغبات تستهلك حياته وهي شبيهة بالخط اللامتناهي كلما سار عليه بعدت عنه خط النهاية، وليسقط بعد ذلك في حب التملك والتنافس وحب القوة، فالإنسان بحسب تحليل برتراند راسل: "يشتهي الثناء الدائم"، أما حب القوة فهي من أقوى الدوافع وأخطرها نظراً لما تقود إليه من نتائج سيئة (برتراند، 1960، صفحة 143) .

وهنا يتحول الإنسان إلى أداة مجرّدة من أية قيمة إنسانية، فلقد عمل المجتمع الصناعي على خلق حاجات زائفة وكاذبة، والحاجات الكاذبة بحسب ماركيوز: "هي الحاجات التي تفرضها مصالح اجتماعية معينة...، وهي تحقق شعوراً بالسعادة لكنه شعور زائف كونه يمنع الفرد من إدراك الشقاء العام" (هربرت، 1973، الصفحات 40-41) وحاجاتهم هذه حملتهم على الاندماج في النظام الحالي للإنتاج والاستهلاك، فالفكر والثقافة ووسائل الإعلام، والإدارة الصناعية، والأنماط المعاصرة للسلوك التي يتم تلقينها للناس، كل ذلك لا بدَ أن يفضي إلى إعادة إنتاج النظام نفسه ويرسخ منهجية للقضاء على الرفض، والنقد، والمعارضة، والنتيجة هي عالم الفكر والسلوك "أحادي

البعد"(هربرت، 1973، الصفحات 47-48) الذي تتلاشى فيه القدرة على التفكير النقدي ومنه ينتج لنا عبارة "الإنسان ذو البعد الواحد"، وتعني الإنسان البسيط غير المركب.

وهكذا فالإنسان ذو البعد الواحد هو نتاج المجتمع الحديث، وهو نفسه مجتمع ذو البعد الواحد الذي يسيطر عليه العقل الأداتي والعقلانية التكنولوجية والواحدية المادية، وشعاره بسيط هو التقدم العلمي والصناعي والمادي وتعظيم الإنتاجية المادية وتحقيق معدلات متزايدة من الوفرة والرفاهية والاستهلاك، ومنه تُخلق طبيعة ثانية مشوهة لدى الإنسان إذ يرتكز اهتمامه على وظيفته التي يضطلع بها (فهو إنسان وظيفي) وتتركز أحلامه على السلع ويرى ذاته باعتباره منتجاً ومستهلكاً وحسب دون أدنى إحساس بأيّة غائية كبرى أو هدف أعظم (المسيري، العلمانية الحداثة والعولمة، تحرير:سوزان حرفي، 2013، صفحة 33)، وتتقارب عبارة "الإنسان ذو البعد الواحد" مع عبارة الفيلسوف طه عبد الرحمن"الإنسان الأبتر"، فإنسان هذا العصر صار عبارة عن آلة، ثم صارت عبارة عن سلعة، ثم صار عبارة عن معلومة، ومعروف أنَ الآلة مبناها أصلاً على التجريد والتجزيئي، وأنَ السلعة مبناها أصلا على الثمن والربح وأنَ المعلومة مبناها أصلاً على الرقم والافتراض، ولا يخفى ما في هذه الإجراءات والقيم الحديثة من خفض للوجود الإنساني وتضييقه(عبد الرحمن، 2016، صفحة 105).

ويبدو أنَ إنسان القرن الواحد والعشرين قد فشل فشلاً ذريعاً، إذ انحلت روابط التآزر الأسري والاجتماعي، وتفككّت العائلة دون أن تحل محلها روابط جديدة، فلقد أصبح الإنسان العصري أكثر حرية ممَا سبق، لكنّه وحيد وقلق، إنّه حرّ لكنّه خائف من هذه الحرية، يعيش في حالة من الضنك وعدم الطمأنينة.

2.4ت المجتمع الغربي من الصلابة إلى السيولة

لقد أكّد بيغوفيتش على ضرورة التفرقة بين المجتمع النظامي والجماعة الإنسانية، فالمجتمع هو مجموعة خارجية من الأفراد الذين تجمعهم المصلحة وتحدّهم السلطة المادية، بينما الجماعة كالأسرة والعائلة والأصدقاء هي التشكيل الداخلي بين أناس اجتمعوا على أساس من الشعور بالانتماء، فالأول قائم على المطالب المادية والثانية على التبادل الروحي والأشواق (بيغوفيتش، 1992، صفحة 242)، ويمكننا اعتبار أن تشكيل أعضاء المجتمع في صورة أفراد هو سمة المجتمع الحديث، فالمجتمع الحديث يقوم على النشاط المتواصل الذي تحدثه سيرورة النزعة الفرديةوفي ذات المسار، يحاول باومان في حداثته السائلة أن يدرس ظاهرة الفردية، انطلاقا من ملاحظته أن مجتمعنا اليوم هو مجتمع خاضع لسيرورة النزعة الفردية، يقول باومان: "حداثتنا الغربية نسخة يطغى عليها الطابع الفردي والطابع الخاص.." ، فالفرد هو الفاعل الوحيد في مرحلة السيولة، فالكل يؤول إلى الفرد وحده، هو فقط من له الحق في تقرير الأشياء ذلك أن الأفراد في عالم الحداثة السائلة ينعمون بحرية الاختيار، فالفرد هو الذي يقرر الأشياء التي بمقدوره أن يفعلها، وينمي هذه المقدرة بأقصى المستطاع، ويحدد الغايات التي تتوافق وهذه المقدرة، بحيث يتحقق له كل الرضى الذي يبتغيه، وكل متعة يمكن أن يتصورها العقل أو يخطر على البال، فالأمر بأكمله متروك للفرد. هذه النزعة الفردية أدت إلى هيمنة الفضاء الخاص على الفضاء العام، فلقد أصبح الفرد مهتما بشؤونه الذاتية والخاصة عوض شؤون مجتمعه والمصلحة العامة، وهذا ما مثل عائقا ومشكلا للمواطنة، فالفردانية أدت إلى تفكك المواطنة، وتآكلها ببطء يقول باومان في هذا الشأن: ‹‹ الأفراد هم المتضررون من الضغوط التي تفرزها سيرورة النزعة الفردية، فهم يجردون تدريجيا ولكن باستمرارية دائمة، من درع المواطنة الواقي، وتنزع منها مهارات المواطن واهتماماته››(شرف الدين، 2018)وفي

ظل حضارة الفوارغ والتغليف يصعب المحافظة على الأشياء، فالإنسان فيها دائم البحث عن الجديد حتى في علاقاته الإنسانية، فلقد صارت العلاقات المؤقتة تتناسب مع حاجة الإنسان الجديد للاستبدال، وأصبح الصبر والمجهود المعنوي المطلوب لاحتواء وتجاوز ومراعاة أوقات الاضطراب داخل العلاقة ضرباً من اللامعقولية، كما يتطرق باومان لسيطرة العوالم الافتراضية على عالمنا الحقيقي، وكيف أن العلاقات في الواقع أصبحت تقاس بمقاييس الواقع الافتراضي، أي أن ضغطة زر واحد على "حذف" أصبحت تستعمل في الحياة الحقيقية كتعبير عن سرعة إنهاء العلاقات وكأنها لا شيء وكذا تسرب الملل إلى الحياة الزوجية عما مضى بسبب استشراء معاني الاستهلاك داخل النفوس بالبحث الدائم عن اللذة الفورية قصيرة الأجل، ففي ظل تنامي السيولة في كل شيء، وتحول "المجتمع" إلى مجرد "تجمع بشري"، تحول هذا الإنسان من "وضوح العلاقات الاجتماعية" إلى "غموض الصلات العابرة"(BAUMAN, 2000, p. 148)وفي ظل هذا تنمو العلاقات الافتراضية وهي على عكس العلاقات الحقيقية، حيث يمكن خوض العلاقات الافتراضية بسهولة كما يمكن التنصل منها بسهولة. تبدو العلاقات الافتراضية ذكية وسريعة، بالمقارنة مع العلاقات الحقيقية الثقيلة، التي تتحرك ببطء ويتطلب الخروج منها الكثير من الجهد كما أنها لا تخمد بسهولة.لقد كبرت العلاقات على الانترنت عبر مواقع المواعدة على حساب الأشخاص، الأماكن التي قد تجمعهم بشريكهم والأعمدة التي تتحدث عن الحب في المجلات والصحف، لكن تبقى ميزة العلاقات الافتراضية كما وصفها أحدهم: ''يمكنك دائماً أن تضغط زر الحذف Delete(الحي، 2017)،ويبقى أنَ هذا الملل هو لبّ فكرة الاستهلاك، فالنزعة الاستهلاكية حاضرة ما دامت الرغبة في الإشباع غير مشبعة بصورة تامة، فالمجتمع الاستهلاكي يحاكم أعضاءه ويقيّمهم بناء على مقدرتهم في الاستهلاك، وطبقاً لمنطق الاستهلاك، فإنَ كل شيء قابل للتسلّع، ومن ثمَ مرجو منه النفع المادي وهكذا صارت المجتمعات الغربية مجتمعات فاقدة للمعنى، نتيجة فقدانها لأي يقين معرفي، سقف الإنسان هو السقف المادي، والهدف من العالم المادي هو الاستهلاك، ومع غياب المعنى تغييب معها قدرة الإنسان على العطاء والتضحية والحب (المسيري و أحمد عطية، دراسة في سيرته المعرفية ونقده لقيم الحداثة الغربية، 2018، صفحة 24)، ليتحوّل بذلك المجتمع من مجتمع صلب إلى مجتمع سائل، يعظّم أيمّا تعظيم المرونة فلقد تم قلب الأشياء رأساً على عقب، فضلاً عن الروابط الإنسانية التي يسهل حلّها والفكاك منها، والواجبات التي يسهل الرجوع عنها، فقد ألقى بنا جميعا في سياق نلهث فيه وراء كل جديد، فلقد تسبب التحديث المتتالي الاستهلاك المستمر في حالة من الفردية البائسة والتي طغت على أهمية الجماعة، فأصبح كل فرد يواجه الحياة بمفرده، فأضحى المجتمع عبارة عن جماعة تواجه مشاكلها بشكل فردي، كل فرد على حدى، وأصبحت التجمعات البشرية تكاد تخلو من أي علاقات إنسانية، بل هي علاقات سطحية تقوم على ممارسة اللحظة الحاضرة واستهلاكها دون الاهتمام بتكوين روابط حقيقية فالفرد الحقيقي هو الذي لا يلوم أحد على ما يعاني من بؤس وشقاء، ولا يبحث عن أسباب فشله إلَا في كسله وبلادته، ولا يبحث عن الحل إلَا في مواصلة الجد والاجتهاد (زيجمونت، 2016، صفحة 85)، ففي غياب الأمن طويل الأمد، يبدو الإشباع الفوري إستراتيجية مغرية .

ومن خلال ما سبق نستنتج أنّه إذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية بمفهوم مالك بن نبي هي التي تؤمّن بقاء المجتمع وتحفظ له شخصيته، وأنّها هي التي تنظم طاقته الحيوية لتتيح له أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ، فإذا فهمنا ذلك أدركنا في هذه الحالة قيمة نظام الدفاع الذي ينصبّه مجتمع بطريقة غريزية حول شبكة علاقته كما يحميها

من أي مساس بها. وعندما يرتخي التوتر في خيوط الشبكة فتصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعّالة، فذلك إمارة على أنّ المجتمع مريض، وأنّه ماض إلى نهايته أما إذا تفككّت الشبكة نهائياً فذلك إيذان بهلاك المجتمع، وهو ما حدث فعلاً على أرض واقع المجتمع الغربي(بن نبي، 1986، صفحة 43).

5.خاتمة:

من خلال ما سبق توصلت الدراسة إلى ما يلي:

- شرح الحداثة الغربية عبر مسيرتها وانتقالها من مرحلتها الأولى المتميزة بالصلابة إلى زمنها الثاني المتسم بالسيولة وسرعة التغير، إذ تم الانتقال من زمن الارتباط الى زمن فك الارتباط، حيث أصبح التفكك والانقطاع من السمات العادية في حيا ة المجتمعات المعاصرة وهو نتيجة حتمية لعمليتي الإذابة والتمييع التي تركت بصمتها على كل شيء حتى على العلاقات الإنسانية.
- تبيان م ساهمة الحداثة في صورتها السائلة في تغيير العديد من المفاهيم والتغيير في الكثير من الأسس مماجعل العلاقات الاجتماعية تدخل السيولة، بتحويلها إلى "علاقات استهلاكية" وعابرة تفتقر للأبدية ، والتمركز حول الجسد.والاغتراب والقلق وغياب اليقين والتمركز حول الذات.
- رصد سمات وملامح المجتمع الغربي في زمن التحولات ودلالة السيولة فيه وآثارها التي يعيشها في راهنيته.
- خلصت الدراسة إلى أنّ صورة الإنسان المعاصر في سياق المشاريع التنموية الغربية أغلبها صورة أحادية البعد ، فلقد غيرّت الحداثة عبر مساراتها مقومات العيش الإنساني وأعادت صياغة الإنسان والزمان والمكان لتمنحهم معاني أكثر اقتراناً بالرأسمالية في مراحلها المتتالية.
- إن الكتابة والاهتمام بمثل هذه الدراساتالنقدية وإن بدت متحيزة ومتشائمة إلا أنها تساعدنا على الخروج من وهم المأساة الفردية إلى رحابة النظر الأوسع، وتعيننا على استعادة الوعي بفلسفة الزمن وبالنظم الحاكمة وهي أول خطوة للتفكير الجمعي في حلول مختلفة، وفي خلق وعي اجتماعي.

6.قائمة المراجع:

المؤلفات:

- أحمد عروة، عناية غازي، و آخرون. (1996). قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والإجتماعية ،تحرير:نصر محمد ناصر. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- أحمد فرّاس العوران. (2014). *اقتصاد الأمن المجتمعي التحدي والاستجابة*. عمان، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- ألان توران. (1997). *نقد الحداثة*. (تر:أنور مغيث) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- باومان زيجمونت. (2016). الحداثة السائلة،. (تر:أبو جبر حجاج) بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

- باومان زيغمونت. (2006). الخوف السائل،تر:حجاج أبو جبر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- بلقزيز. (2009). *من النهضة إلى الحداثة*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- بيغوفيتش. (1992). *الاسلام بين الشرق و الغرب*. (تر:محمد،يوسف) القاهرة: دار الشروق.
- توران الان. (1997). نقد الحداثة، (ترجمة أنور مغيث). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- جان بوديار. (2009). *الحداثة*. (تر:محمد سبيلا) بيروت: شبكة الأبحاث العربية.
- راسل برتراند. (1960). *المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة*. (تر:عبد الكريم أحمد) القاهرة: مكتبة الانجلو مصرية.
- زيغمونت باومان. (2006). *الخوف السائل*. (تر:حجاج أبو جبر) بيروت: الشيكة العربية للابحاث و التشر.
- زيغمونت باومان. (2016). *الحداثة السائلة*. (تر:حجاج أبو بر) بيروت: الشيكة العربية للأبحاث و النشر.
- سناء الاخولي. (1993). التغيير الاجتماعي والتحديث. القاهرة: دار المعرفة.
- طه عبد الرحمن. (2016). *من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر*. بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع.
- عبد الإله بلقزيز. (2009). من النهضة إلى الحداثة. مركز دراسات الوحدة العربية: بيروت.
- عبد السلام بوزبرة. (2011). *نقد الحداثة في فكر طه عبد الرحمن*. بيروت: جداول للنشر والتوزيع.
- عبد الوهاب المسيري. (2009). دراسات معرفية في الحداثة الغربية. القاهرة: دار الشروق.
- عبد الوهاب المسيري. (2013). العلمانية الحداثة والعولمة، تحرير:سوزان حرفي. دمشق : دار الفكر.
- عبد الوهاب المسيري، و عبد الحليم أحمد عطية. (2018). دراسة في سيرته المعرفية ونقده لقيم الحداثة الغربية. المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.
- عبد الوهاب المسيري، و فتحي التركي. (2003). الحداثة وما بعد الحداثة. بيروت: دار الفكر العربي.
- عز الدين الخطابي. (2009). *أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية*. بيروت، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- علي عزت بيغوفيتش. (2014). الإسلام بين الشرق و الغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس،ط 5. القاهرة: دار الشروق.
- فتحي التركي. (1992). فلسفة الحداثة. بيروت: مركز الإنماء القومي.
- لوكاتش غيورغ. (1979). *التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة: حنا الشاعر*. (حنا الشاعر، المترجمون) بيروت: دار الاندلس.
- ماركيوز هربرت. (1973). *الإنسان ذو البعد الواحد*. (جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت: دارالآداب.
- مالك بن نبي. (1986). ميلاد مجتمع. (عبد الصبور شاهين، المترجمون) دمشق: دار الفكر.
- محمد سبيلا. (2000). الحداثة وما بعد الحداثة. الدار البيضاء: دار طوبقال للنشر.
- محمد سبيلا. (2009). مدارات الحداثة. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- محمود الذوادي، عمر النجدي، و آخرون. (1997). إشكالية التحيّز، تحرير، عبد الوهاب المسيري. و.م.أ: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

- موران إدغار. (2004). *الفكر والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب*. المغرب: دار بوتقال.
- BAUMAN, Z. (2000). *Liquid modernity.* uk: polity press.
- Kant, E. (1968). *critique de la raison pure.* Paris: : Ed, P.U.F.
- Tourine, A. (1992). *Critique de la modernité.* Fayard.

المقالات:

- العايب شبيلة. (2012). "الدينامكية الاجتماعية والنمو السياسي". *الأكاديمية للدراسات الاجتماعية و الانسانية*(8)، الصفحات 68-74.
- أم الخير بدوي. (2018). " التغير الاجتماعي رؤية نظرية". الجزائر: مجلة التغير الاجتماعي،العدد الخامس.

مواقع الانترنيت:

- أنديرا مطر. (31 ديسمبر، 2017). *عصر الحداثة السائلة* . تاريخ الاسترداد 16 سبتمبر، 2023، من القبس: https://www.alqabas.com/article/482522-%D8%B9%D8%B5%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A7%D8%A6%D9%84%D8%A9-%D8%A3%D9%81%D9%88%D9%84-
- سامية شرف الدين. (3 11، 2018).*أبناءالمجتمع السائل* . تاريخ الاسترداد 16 9، 2023، من https://www.dohamagazine.qa/%D8%A3%D8%B1%D8%B4%D9%8A%D9%81/:
- علي عبد الحي. (19 ، 1، 2017). *الحب السائل* . تاريخ الاسترداد 19، 9، 2023، من الجزيرة نت: https://www.aljazeera.net/blogs/2017/1/19/%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A7%D8%A6%D9%84-%D9%88%D9%87%D8%B4%D8%A7%D8%B4%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%A7%D8%AA
- عودة،سامح. (22 01، 2018). *مجموعة السوائل طريقك إلى نظرية باومان في علم الاجتماع* . تاريخ الاسترداد 12 9، 2023، من الجزيرة نت: https://www.aljazeera.net/midan/intellect/sociology/2018/1/22/%D9%85%D8%AC%D9%85%D9%88%D8%B9%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%A7%D8%A6%D9%84-%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%82%D9%83-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A8%D8%A7%D9%88%D9%85%D8%A7%D